



إذا كانت هناك كلمة يمكنها أن تلخص العام الذي ينقضي فإنها ستكون حكماً كلمة اللاجئين. أما الصورة الحزينة التي تمثل هذه المأساة، فلن تعثر على تعبير عنها أفضل من جثة الطفل إيلان كردي ممددة على ذلك الشاطئ التركي، بعد أن فشل والده في إنقاذه من غدر أمواج البحر. أعرف أن هناك كلمات يمكنها أن تنافس كلمة «لاجئين» على التعبير عن أحداث هذا العام، مثل «داعش» أو الإسلاموفobia.

ولكن الصور التي تناولت لقوافل اللاجئين الذين خاضوا أقسى المغامرات مع عواصف البحر وأنوائه للوصول إلى شاطئ نجا، وأكثريهم لم يتثنّ له الوصول فغرق في الحلم، هذه المشاهد تبقى الأكثر تعبيراً عن مأسى مجتمعاتنا التي صار الموت فيها أو هاجس الموت هو الخطر اليومي الذي يحدق بالناس، حتى صاروا مستعدين للتخلّي عن كل شيء: البيت والأهل والعائلة والهوية والانتماء، في سبيل العيش، فقط العيش، ولو في بلاد تبعد آلاف الأميال البحريّة وتفصلها عنهم كل الحواجز التي يمكن تخيلها: اللغة والدين والثقافة وتقالييد الأكل والشرب والملابس والنزهة والمدرسة والحدائق العامة وأماكن الصلادة.

اللاجئون: كلمة واحدة تكفي للتعبير عن الكارثة التي حلّت ببلادنا. الوطن هو عادة المكان الطبيعي الذي يلتجأ الإنسان إليه ليحتمي به. الهجرة ليست هي المكان الطبيعي لسكن الناس ولراحة عيشهم ولتربيّة أطفالهم. لذلك كان الحنين إلى الوطن هو عنوان قصائد الشجن، التي يحملها الناس معهم في حقائب الغربة، ويصدحون بها كلما مرت بيالهم ذكريات الحياة التي كان يمكن أن تكون أحلى في أوطانهم.

اللاجئون: قدرهم أنهم ولدوا في بلدان طاردة لشعوبها. على عكس بلاد الناس الأخرى التي توفر لبنائها كل سبل الحياة الكريمة ليستقر فيها أو يعودوا إليها. شبابنا في المهاجر. نخباً المتعلمة والقادرة على إخراج مجتمعاتها يوماً ما من دوامة البوس والجهل والفساد وسوء الإداره، تبحث عن أي فرصة عمل في الخارج، وإذا وجدتها يصبح الوطن مجرد ذكرى تعلق على جدار، أو تحفظ صورة في ألبوم الزمن الذي مضى.

يخرج اللاجئون من أوطانهم إلى حلم العيش الكريم في بلدان أوروبية اعتادت على مدى تاريخها أن تكون ملجاً للمضطهدين. تسمح ثقافاتها باستيعاب الناس على اختلاف انتسابهم الدينية والعرقية والفكرية. لكن، حتى ثقافة الاستيعاب هذه باتت مهددة أيضاً بفعل عامل الخوف والقلق الأمني الذي يزرعه الإرهاب المنسوب إلى تنظيمات تدعى الإسلام.

هكذا يصبح اللاجيء الباحث عن أبسط ظروف الأمان منكوباً في وطنه ومنكوباً على شواطئ الغربية، حيث تتسع وتكبر نظرات الشك من هذا القادر من بعيد، الذي يمكن أن يشكل في نظر البعض مشروع قبلة متفرجة أو انتحاري متوجّل.

أوطاننا تتغير بشرياً من داخلها وتتغير جغرافياً عبر حدودها. تغير بشري وجغرافي وسياسي ليس معروفاً مداه ولا أين يمكن أن يستقر. أرقام منظمة غوث اللاجئين تتحدث عن أكثر من مليون لاجئ هربوا من بلدان العالم العربي والشرق الأوسط هذا العام، في أكبر عملية نزوح إلى القارة القديمة منذ الحرب العالمية الثانية. فيما تجاوز عدد اللاجئين والهاربين من أوطانهم بسبب مختلف النزاعات حول العالم ستين مليوناً.

أما أوطان الغربية التي يسعى اللاجئون إليها فتتغير هي أيضاً. وباستثناء قلة من الدول والشعوب الأوروبية التي لا تزال تحافظ على تعقلها في التعامل مع أزمة اللجوء، تنتشر أصوات عنصرية، كانت إلى الأمس القريب، مذمومة في بلادها، لكنها أصبحت اليوم ترفع الصوت مطالبة بإغلاق الحدود وفحص الانتماءات الدينية لللاجئين، واستبعاد المسلمين من بينهم، قبل تسهيل إقاماتهم.

أزمة اللاجئين ذات حجم عالمي لا تهدّد استقرار بلداننا ومستقبلها فقط. إنها تهدّد الاستقرار العالمي وقدرة الناس على التعايش والتفاهم ومواجهة الأزمات والكوارث معاً بقلوب وعقول منفتحة. إنها ببساطة تكشف قدرتنا على التعامل مع بعضنا كبشر، وما ترتبه علينا هذه الهوية من التزامات إنسانية.

الحياة اللندنية

المصادر: